« جريس » ...

قصة بقلم الدكتور جورج جحا

كان اسمه الحقيقي جرجس عازر .. وهو ينتمي الى عائلة كبيره ومحترمه .. فيها شبان وشابات اكثر علما من سائر عيل الضيعة .. وكانت مختارية الضيعة نادراً ما تعطى لغير هذه العائلة .. وكان الكاهن كذلك منها .. واذا قدم الغربة قائمقام او مدير ناحيه او ظابط كبير، كان ينزل في ضيافة احد كبارها .. وكان المرشحون للانتخابات البلدية او النيابية ، يطلبون رضاها عليهم ، ويزورونها بيتا بيتا .

كان اهل القرية ينادونه « جريس الاخوت » .. مع انـــه ليس مجنونا كسائر المجانين . فهو لا يضرب ، ولا يقتل ، ولا يعربد ، ولا يخوف احدا .. ولكنه غريب الاطوار كل الغرابة .. اذا كلمه احد ، لا يرد عليه ، واذا رد ، ينبر فيه نبرا ، بجرس كجرس الضبع .. ثم يطلق ضحكة مجلجلة ، ويدير له ظهره ، وهـــو يردد معـزوفة خاصة « تره لم تره لم تره لم » .

**

كانت سنه حوالي الاربعين حين عرفه ، ما خرج يوما من ضيعته .. قدمه لم تطأ فسحة خارج حدود بشامون (اسم الضيعة) .. يلفها من اولها الى اخرها عشية كل يوم .. ويدخل بيوت اهلها واحدا واحدا كأنه منهم .. الرجال يمازحونه ، والنساء لا يتحجبن عنه .. يدخل املاك الفرويين ، ويقطف منها ما يحلو له .. يحبه الجميع لانه لا يضر احـــدا .

كان « جريس » يسكن غرفه جانبية في بيت ورثته اسرته ابا عن جد في « حارة النحنا » .. يقوم مع الفجر ، فيخطف لقمة من معجن البيت ، ويمشي الى ساحة العين ، في « حارة الفوقا » .. رأسه الى الارض ، لا يتطلع لا الى اليمين ولا الى الشمال .. وكان اذ يصل الى الساحه ، يذهب توا الى دكان الشيخ بو علي .. ويصبحه بالخير .. ويتقوقع القرفصاء على دكة امام الدكان .. ويطبق فمه حتى غروب الشمس ـ موعد لفه على البيوت ـ الا على معزوفته الخاصة « تره لم تره لم تره لم » .

**

عندما كنت اذهب الى بشامون (في صغري كنت اتردد عليها مرة كل شهر على الاقل ، وامضي فيها اياما ما تزال حلاوتها تحت اضراسي كما يقول المثل ، بسبب من محبتي لها ولاهلها ، الاتية من محبتي لابنتها امي) كان جريس اول من يقع عليه نظري ، مفوقعا امام دكان الشيـــخ بو علي ، على مدخل الضيعة .. عيناه الى الارض ، كما لو كان غارقا في تفكير عميق .. يلبس سروالا فضفاضا ومرتقا كان بالماضي ازرق اللون .. على رأسه طربوش مجعد وبدون شرابة .. صدرته مفتوحة على وسعها تكشف عن صدر صلب صلابة الحجر ، ومكتف الشعر الموشى بخيوط بدأ فيها الشيب .. لا تزرر صدريه ـ بل ليس فيها ازرار ـ لا فرق اكانت الدنيا صيفا ام شتاء ، فلا وهج الشمس يؤثر فيه ، ولا برد الشتاء يكزبر جلدته المنحسة .. يشرحط مداسه المشقوق من الامام من كثرة لبيطه حجارة الطريق .. يلف سيجارة وراء سيجارة من ارخص انواع التبغ ، وينفث دخانها الاسود كدخان « المشاحر » .. اذا صبحه احد ، وخطر له ان يرد عليه ، جاء رده همدرة كهمدرة الضبع .. ثم يعقبه بمعزوفته الخاصة « تره لم تره لم تره لم » . الانسان الوحيد الذي يرد عليك « صباحك بالخير » هو صاحب الدكان الشيخ بو علي .

**

كان جريس في طريقه الى ساحة العين ، مر على الجنائن ويقطف ما تصل اليه يده من ازهار ، من كل لون الا اللون الاصفر ، لانه يتطاير شرا من اللون الاصفر ، وهذه احدى غرائب اطواره .. احب الازهار اليه ، الوردة الحمراء ، فاذا وجدها ، يقطف كل ما يجده منهـا في الجنينة المكوبة به . ثم يحمل باقته العزيزة الى الساحة ، ويلوح بها كلما مرت امامه صبية .. شافعا تلويحه بمعزوفته « تره لم تره لم تره لم » .. تفنيها غناء لكي يلفت نظر الصبية . وكان جريس لا يرفع نظره عن الارض الا عندما تزدحم ساحة العين بالنساء، الحاملات جرارهن لتملأنها من مياه العين .. اذ يمتع نفسه ، الجائعة الى الحسن ، « بالبصبصة » عليهن . انه يحب الصبايا والصبايا يشفقن عليه .. ولا يبخلن عليه ببسمات بريئه .. يشفعنها احيانا بكلمة حلوة ، لتطيب القلب المحتاج الى ان يطيبه احد .

غير ان شأن الصبية عكس شأن الصبايا .

كان الصبية العفاريت ، يهزأون به ، ويلاحقونه بـ « يا اخوت يا اخوت » .. ويرشقونه بالبحص .. فيهمدر بهم ، ولكن لا يخافهم ، ولا يأتي ما يؤذيهم .. واذا اصابه احد « بنقفة » بحصة ، يلجأ الى داخل دكان الشيخ بو علي ، ويحتمي فيه .. فيقوم صديقه الشيخ ، ويهول بعصاه على الصبية الارذال ، ويفرقهم عن هذا الانسان المسكين، الذي لا يعطف عليه احد غيره .. ثم يعود ويطيب خاطره بكلمات لا اعذب ولا احن .. ويناوله كم حبة ملبس ، او كمشة فضامي ، او شيئا اخر من موجودات الدكان .. وفي حالة اصابته بجرح او خدش ، يضمـد جرحه بالسبيرتو والقطن ، ويبقيه داخل الدكان ، الى ان يتفرق الصبية الارذال .

**

كان صاحب الدكان الشيخ بو علي ، من اهل التقى ، واحد كبار اجاويد دروز الضيعة .. سنه حوالي السبعين ، وعليه كل علائم الطيبة والوقار .. لحيته البيضاء كالثلج نزيده مهابة .. في حيانه الشيخية، ما لفظ كلمة سوء باحد .. ترمل قبل سنتين ، دون ان ينجب اولادا، فاحب ابناء اهل القرية كلهم .. بعد موت من كانت له اوفى زوجة ، نهدل جسمه ، وشح نظره ، وضعف قلبه .. احدودب ظهره كما لو كان ابن تسعين .. ولكنه كان يأبى الاعتكاف في البيت .. فيقوم مع الفجر ، ويمشي رأسا الى دكانه ، كما تعود منذ خمسين سنة.. اشتغاله في الدكان من قبل تقطيع الوقت ، والهروب من الوحدة التي يعيشها في البيت .

ودكان الشيخ بو علي لا يحوي الا اشياء قليلة .. كيس طحين ، وكيس عدس ، وكم علبة ملبس ، وما الى ذلك من مواد ، ليس فيها ما يعجب ، ولا انمانها تغني . على ان الشيخ الطيب ، كان يحرص على ان يكون عنده حفنة تبغ ، ليس برسم البيع ، بل ليؤمن لصديقه المسكين، ما ليس له عنه غنى . الشيخ بو علي لا يدخن،شانه شأن كل الاجاويد.. واذا جاءه شار ليشتري تبغا ، يستعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لحسبانه ان التدخين من المحرمات ، وبيعه من المنكرات . ولكن من شدة عطفه على جريس ، لا يطيق ان يحرمه من اللذة الوحيدة ، التي يتلذذ بها ، انسان محروم من ملذات الدنيا كلها .

**

لم يكن جريس يرى من يعامله معاملة انسان غير الشيخ بو علي. اذا صدف وتأخر عن المجيء الى الدكان في الصباح ، يسبقه جريس ،

وينقوقع على عتبة الباب كالكلب الحارس .. الويل لمن يقترب من الدكان قبل وصول صاحبه الشيخ .. واذ بجيء بو علي ، ويفتح الدكان ، يربت على كتف هذا الحارس ، ويبتسم له ابتسامة المحبة ، ويناوله شيئا من موجودات الدكان .. يلتهمه جريس ويهجم على يد الشيخ ، ويوسعها تقبيلا .

***

جاء جريس ذات صباح الى ساحة العين ، كعادته كل صباح ، ويقوقع على عتبة الدكان بانتظار صديقه الشيخ بو علي .. فسمع من يقول ان الشيخ بوفي فجاة في الليل .. فذعر جريس ، وكان صاعقة نزلت عليه .. وهب هبوب الريح باتجاه بيت الشيخ بو علي القريب من الدكان . واذ دخل البيت ، ورأى الشيخ ممددا لا حراك فيه، طفق يبكي ويلطم رأسه وصدره بكلتا يديه .. وجعل يدافع الجماهير حول الجثمان .. وركع .. واخذ يقبل المسجى ، في وجهه ، ويديه ، ورجليه. وجعلت النسوة حول الجثمان يبكين ليكاء هذا « الابله » الذي ما ظن احد ، ان عنده مثل هذا الشعور .. وبوقفت النادبات عن الندب مشدوهات من منظر هذا الرجل المسكين المكسور القلب .

بقي جريس راكعا امام الجثمان ساعة كاملة ، دون ان يرفع نظره عن الوجه البارد ، كان ليس حول الجثمان احد سواه .. لم يتلفت لا الى اليمين ولا الى اليسار .. وغاب عنه وجود النساء المحتشدات في غرفة الميت .. وهو من كانت لا تمر امامه امرأة الا ويأكلها بعينيه .

غير انه فطن ، ان غيابه عن دكان صديقه الشيخ بو علي ، قد يسول لاحد محاولة الاقدام على سرقة شيء منه .. فقام من ركعته، واسرع الى الدكان ، وتقوقع على عتبة الباب ، وهو يجهش بالبكاء .

كان بكاء جريس على صديقه الشيخ بو علي ، اول ما عرفت الدمعة طريقها من عينيه .

***

وعندما حل موعد تشييع الجنازة الى المقر الاخير .. عاد جريس الى بيت صديقه الشيخ ، حيث كان كل اهل الضيعة متجمهرين لمرافقة الجنازة . ان الشيخ بو علي محترم من الجميع ، وله مكانته المرموقة في القرية وجميع القرى المجاورة .. ومأتمه يجب ان يكون بمستوى مقامه . هذا فضلا عن ان في هذه الضيعة كما في سائر الضيع الجبلية، للموت حرمة ، لا يعرفها اهل المدن .

جعل جريس يدافع الجماهير ، ليصل الى حيث يسجى الفقيد. وعبثا حاولت الجماهير صده عن الوصول الى الجثمان . فكلما امسك به احد ليرده الى الوراء ، يحملق به كالثور الهائج ، ويشق طريقه بين الصفوف المتراصة ، ليودع من هو في عينه كل الدنيا ، الوداع الاخير، ويسجيه في المحمل بيديه هو . ان من حقه اكثر من غيره ، ان يسجي صديقه على محمل الموتى .. وهو لن يتنازل عن حقه هذا لاحد .. وهو هو من سيحمل المحمل على كتفه ، من البيت الى القبر .

***

جرت العادة في القرية — كما في غيرها — ان يحمل الميت الى قبره ، شبان من طائفته دون سواهم ، لا سيما اذا كان الميت احد كبار اجاويد الطائفة .. تقليد متوارث جيلا بعد جيل ، يحترمه القرويون (على بلادته) رغم تعاطفهم بعضهم مع بعض ، ومشاركتهم الافراح والاحزان . على ان جريس ابى بعناد الرضوخ لهذه العادة .. لقبره ان يتمسك بالتقاليد ويحترمها .. اما هو فلا يعرفها ولا يهمه امرها .واذ حاول بعضهم ازاحته من الطريق ، زمجر بهم زمجرة الذئب الكاسر .. وكادت تحصل معركة بينه وبين هذا البعض .. لو لم يتدخل احد كبار « العقال » ويرد المتهوسين عن بطل الساحة . كان لهذا الشيخ الجليل، المتفهم اكثر من غيره بلادة هذه العادة ، وضرورة اقتلاعها — رغم براءتها — الفضل في نجاة جريس الاخوب من ايدي الشبان المتهوسين، وسوية الامر ، على ما يرضي الاخوب المستفرس .. كما كان له الفضل ، في مسخ هذه الظاهره ، الموارثة جيلا عن جيل .. اذ هو وجد مناسبة طالما راودته من قبل ، لجعل « خوتنة » اخوت ، امثولة لمسخها ، كظاهرة من ظاهرات التفريق بين ابناء الوطن الواحد ، والقريه الواحدة .

***

ومن بيت الفقيد الشيخ بو علي الى القبر — مسافة كيلومتر واكثر — القى جريس على كتفيه مقدمة المحمل .. وابى ان يشاركه ، او يناوبه الحمل احد . انها اخر رفقه بينه وبين اعز الناس اليه . وهو لا يقبل ان يفوت عليه احد ، ولو دقيقة واحدة من هذه الرفقة .

***

واذ وصلت الجنازة الى المدفن ، في خارج الضيعه ، وسط غابة زيتون .. وضع المحمل على الارض . وشرع المشايخ الاجاويد في الصلاة على الجثمان صلاة الموت . فوقف جريس خاشعا وكاشف الرأس ، خشوع من عقله يزن قناطير .. عيناه شاخصتان الى الارض ،والدموع تهطل من عينيه .. حتى اذا ما انهى الاجاويد الصلاة ، اسرع من حيث كان واقفا ، الى المحمل ، وامسك بيديه المخشوشنتين ، كتفي صديقه الشيخ الميت .. ومشى به الى داخل بيته الاخير .. وهو يجهش بالبكاء كالطفل .

***

وعاد جريس ، محني الظهر ، كأنه في يوم واحد ، قطع عشرين سنه من عمره . وذهب توا الى دكان صديقه الشيخ بو علي .. وتقوقع على عتبة الباب ، كما لو كان صديقه الشيخ لم يمت .

ولاول مرة ، امضى جريس يوما كاملا ، دون ان يردد معزوفته الخاصة « تره لم تره لم تره لم » .

جورج حنا

صدر حديثا عن دار الاداب

دور العرب

في تكوين الفكر الأوروبي

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

يستعرض هذا الكتاب الهام اثر العرب في تكوين الحضارة الاوروبية في العصور الوسطى ، فيتحدث عن دور العرب في الشعر والفكر العلمي وتكوين الفلسفة والمعارف والموسيقى والعمار في اوروبا ، ويلقي ضوءا جديدا على التأثير العربي العظيم في القرون الوسطى .

الثمن ٣٥٠ ق. ل